

# كِيَانِ الْكَلِمَةِ وَكَلِمَةُ الْكِيَانِ: (يَسُوعُ / عَيْسَى بَيْنَ الْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)

لمياء الفقيه  
باحثة تونسية



قسم الدراسات الدينية

بين "كيان الكلمة" و"كلمة الكيان" انفصال قضيوي يخالف ظاهر الاتصال اللفظي. فلئن كان تتاعم المنطوق يستدعي - في وجه من الوجوه - تفاعل الخلفيات الكامنة في العبارتين، فإن أصل هذا التفاعل قائم على تباين بين المرجعيات وتعارض بين التصورات تقبلاً وتأييلاً ورداً؛ ذلك أنّ "كيان الكلمة" مسألة محور في الفكر المسيحي ومن صميم اللغة الإنجيلية. "في البدء كانت الكلمة". أما "كلمة الكيان"، فمن منشأ اللغة القرآنية "ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"، وفي صميم الخلفية الإسلامية التي تجلّت بوضوح في الحوار العقدي بين المسيحية والإسلام. غير أنّ المدار الدلالي الجامع بين العبارتين، هو ذات يسوع / عيسى المقدّسة، فإنّه هو الكلمة الذي كان. ولكن على أي وجه وصورة؟ وبأيّ توجّه وتصوّر؟

هدفنا في هذا العمل أن نقف على أهمّ التقاطعات بين رؤيتين عقديتين تجادلتا كثيراً في شأن يسوع/ عيسى الذي هو "كلمة الله" أو "كلمة من الله" أو "كلمة مع الله" أو "كلمة عند الله" أو "الكلمة الله"<sup>1</sup>. ولسنا نروم البحث في مصطلح "الكلمة" بين النصّين الإنجيل والقرآن فحسب، بل نسعى إلى النظر في أبعاده بين الثقافتين المسيحية والإسلامية، وإلى تبيين الدلالة التي شجّن بها عند رحيله من سياق نصّي مخصوص سابق، ومن ثقافة دينية معيّنة كان قد تخلّق فيها، إلى مقام نصّي وثقافة دينية لاحقين في الزّمان أدْرَجَ فيهما بعد مرور ستّة قرون تقريباً على النشأة الأولى.

"الكلمة" مفهوم مركزي في العقيدة المسيحية، موصولٌ بمقولة كبرى فيها هي مقولة الألوهية<sup>2</sup> ورغم أهميّة هذه المنزلة التي يحتلّها، ظلّ متلبساً بالغموض واختلّفت الآراء في تحديد دلالاته، وتعيين الكائن المقصود به في النصّ الذي فيه نشأ وفي السياق النصّي الذي تحوّل إليه.

## 1- الكلمة في النصّ الأصل

ثمّة مفارقة مهمّة تتعلّق بحضور مصطلح "الكلمة" في النصوص المصادر، مدارها التباين الجلي بين المنزلة الأساسية التي تحتلّها مقولة "الكلمة" بما هي مقولة جوهرية في مجال العقائد المسيحية من جهة، وانحسار جرّيان هذا المصطلح في نصوص "العهد الجديد" من جهة أخرى. ف"الكلمة" لا يرد له ذكر في الأناجيل الإزائية أو المتوافقة (Evangelies synoptiques)، وهي الأناجيل الثلاثة الأولى في "العهد

<sup>1</sup> - العبارتان الأوليان قرآنيّتان، والثلاث الباقية إنجيلية. وتبدو هذه التعبيرات متقاربة؛ غير أنّ الاختلاف الذي يبدو بسيطاً في صيغها قد يثير كثيراً من الإشكالات العقدية.

<sup>2</sup> - والنصارى فيها على ثلاث فرق: طائفة تقول، إنّ المسيح هو الله، وطائفة تقول هو ابن الله، وطائفة تقول بأنه ثالث ثلاثة باعتبار اتّحاد الأقانيم. انظر التفصيل في عبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، الدار التونسية للنشر، 1986، الباب الثالث.

الجديد"<sup>3</sup>، ولا يُذكرُ في سفر "أعمال الرسل" ولا في "الرسائل" سوى الرسالة الأولى ليوحنا (1 يوحنا 1:1)، ثم في سفر الرؤيا المنسوب إليه<sup>4</sup> (رؤيا 19:13). غير أنّ الموضع الإنجيلي الوحيد الذي يردُّ فيه هذا المصطلح هو فاتحة إنجيل يوحنا، الذي نُزِّل في المرتبة الرابعة من حيث الموضع، والذي عُدَّ لدى الباحثين الغربيين إنجيلًا مختلفًا عن الثلاثة السابقة. وقد تكون هذه الفاتحة التي انفردت بتأصيل مصطلح "الكلمة" من أهم العوامل التي جعلت الباحثين يُخرجون هذا الإنجيل من دائرة الأناجيل المتوافقة.

جاء في مفتاح الأصحاح الأوّل منه: "في البدءِ كانَ الكَلِمَةُ، والكلمَةُ كانَ مَعَ اللَّهِ، وكانَ الكَلِمَةُ هُوَ اللَّهُ. هُوَ كانَ في البدءِ مَعَ اللَّهِ<sup>5</sup>. بِهِ تَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ، وبغَيْرِهِ لَمْ يَتَكَوَّنْ أيُّ شَيْءٍ مِمَّا تَكُونُ. فِيهِ كانتِ الحَيَاةُ. والحَيَاةُ هَذِهِ كانتِ النُّورَ لِلبَشَرِ..."<sup>6</sup>؛ ويضيف يوحنا: "والكلمَةُ صارَ بشرًا، وخَيِّمَ بَيْنَنَا، وَنَحْنُ رَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدَ ابْنِ وَحِيدٍ عِنْدَ الآبِ، وَهُوَ مُمْتَلِئٌ بِالنُّعْمَةِ وَالْحَقِّ"<sup>7</sup>.

لا ريب أنّ دلالة "الكلمة" في هذا المقطع وذاك عديمة الصلّة بالمعنى المألوف لهذا اللفظ في اللّغة العربيّة واللّغة الفرنسيّة (le mot) واللّغة الانجليزية (the word) وفي غيرها من اللّغات، ولا شكّ أنّه مخصّوصٌ بمعنى لا يُفهمُ إلاّ في سياق الثقافة التي استعمل فيها، وهو لا يُحيل في المقطع الإنجيلي السابق إلاّ على شخصيّة المسيح/ يسوع، كما تؤكّده الآيات اللاحقة من الإصحاح الأوّل. والسياقات التي وظّف فيها القديس يوحنا الآيات السابقة تدور حول المقولات التالية التي انتشرت لاحقًا في الفكر المسيحيّ عموماً:

أ- الوجود الماقبلي للمسيح la préexistence؛<sup>8</sup> فالربّ الأب ويسوع الابن حسب التصرّح المسيحي "موجودان حتّى قبل حدوث التجسّد نفسه، بل حتّى قبل حدوث العالم"<sup>9</sup>. غير أنّه لا يكون الحلول في الجسد، في التاريخ، في عالم الناس "حلّ بيننا"، إلاّ بانفصالٍ ما عن المطلق عالم اللاهوت، لا انفصال قطيعة، بل انفصال

<sup>3</sup> - ويُقصد بها إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا.

<sup>4</sup> - اقترن حضور مصطلح "الكلمة" بنصوص يوحنا خاصّة دون سائر الإنجيليين بحيث يمكن أن نعتبره مؤصل هذا المفهوم في التراث المسيحيّ عموماً.

<sup>5</sup> - نجد في بعض النسخ العربيّة عبارة "كان عند الله" عوضاً عن "كان مع الله" وهي ترجمة تعمّق التصرّح المسيحي كما سيأتي.

<sup>6</sup> - العهد الجديد، إنجيل يوحنا 1: من الآية 1 إلى الآية 5.

<sup>7</sup> - المصدر السابق، 1: 14.

<sup>8</sup> - تدلّ على ذلك بعض آيات الأصحاح الأوّل من إنجيل يوحنا: "كان في العالم وكوّن العالم به ولم يعرفه العالم" (1: 10)

"إنّ الذي يأتي بعدي صار قدامي لأنّه كان قبلي" (1: 16)

<sup>9</sup> - يرى الآريون أنّ الوجود السّمائي الماقبلي أخذ محلّ الروح في إنسانية يسوع، انظر:



ج- ارتهان حدث الخلق بالمسيح، وتلخصه عبارة "به تَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ وبغيره لم يتكون أيُّ شيءٍ ممَّا تَكُونُ". وهذا المعنى في "الكلمة" غير منفصل عن مقولتي الألوهية والتجسد؛ ذلك أن أوليته وسببته في تكون الكون وحدث الخلق، تعقدان خاصية الألوهية وصفة الربوبية في ذاته، وهو ما يقرب معنى "الكلمة" من صورة الفعل le mot لا القول le verbe.

د- التجسد l'incarnation، وهو بين في قول يوحنا: والكلمة صار بشرا / والكلمة صار جسدا. <sup>20</sup> إنَّ اتخاذه هذا الجسد الحقيقي وتوحد به وحلوله الفعلي فيه، يعني أنه "قد اكتسى بعنصر مرئي كي يظهر ويتجلى في هذا العالم، ولكن دون أن يأخذ من الإنسانية إلا الجسدية ولا شيء غير الجسدية"؛ <sup>21</sup> فالتجسد بهذا المعنى هو الحدث الذي تتوحد فيه "كلمة الله" بجسد حقيقي <sup>22</sup> "منتزلة إلى العالم والتاريخ بما هي حقيقة الله نفسه" <sup>23</sup>. غير أن هذا التصور يؤسس إشكالية كبرى متولدة من جملة مفارقات طرحها الفكر الديني المسيحي، وعالجها الفكر الفلسفي وناقشها الفكر الإسلامي <sup>24</sup> ومن أهمها المفارقة بين اللاهوتي والناسوتي / والمطلق والتاريخي / والروحي والجسدي / والمفارق والمندمج...

إنَّ مدار "الكلمة" في النصِّ الإنجيلي على شخصية يسوع المسيح <sup>25</sup> من حيث وجوده متعاليا وتاريخيا، ومن حيث ماهيته إلهية وبشرية، ومن حيث وظيفته إيجابا وتجسدا. وقد أجمل "معجم اللاهوت الكتابي" هذه الخصائص والسمات التي تشكلت وفقها صورة يسوع في المعتقد المسيحي. ف"الكلمة" كان له وجود منذ البدء لدى الله، وكان هو نفسه الله، وكان الكلمة الخلاق الذي أنشأ كلَّ شيءٍ، وكان الكلمة النور الذي يُشرق في ظلمات العالم ليعلن للناس وحيَّ الله، ثم تجسّد في التاريخ، فأصبح واقعا ملموسا بالنسبة إلى البشر. <sup>26</sup>

<sup>20</sup>- ترجمتان مختلفتان لنفس النصِّ الإنجيلي

<sup>21</sup>- dictionnaire des religions, p. 767.

<sup>22</sup>- « Le fait pour le verbe de Dieu de s'unir à un vrai corps » dictionnaire des religions, p767

<sup>23</sup>- Ibid, p. 766.

<sup>24</sup>- انظر الفكر الإسلامي في الرد على النصارى: فصل مناقشة عقيدة التجسد ص 304 وما بعدها

<sup>25</sup>- جاء في قاموس الكتاب المقدس أن يوحنا استعمل لفظ "كلمة" للدلالة على يسوع المسيح، واستعمل الفيلسوف فيلون (Philon) لفظة الكلمة (لوغوس Logos) قاصداً بها وسيطاً بين الله والعالم وليس شخصا معينا. قاموس الكتاب المقدس، مادة كلمة، ص 785.

<sup>26</sup>- انظر معجم اللاهوت الكتابي، مادة "كلمة الله"، ص 666.

بهذه السمات المميزة كان مُتصوّر المسيحيين عن المسيح، وبها ارتسمت عندهم صورته على النحو الذي وصفه يوحنا، رغم التنوع المذهبي الذي تعددت فيه التوجّهات العقديّة<sup>27</sup> دون أن يلغي هذا التنوع المبادئ العامّة التي قام عليها مفهوم "الكلمة" يسوع.

إنّ الآيات التي تصدرت إنجيل يوحنا "تطرح استفهاماً مركزياً في صميم الذات الإلهية نفسها في الإيمان المسيحي وفي مشكلة هوية عيسى المسيح"<sup>28</sup> وتحديد طبيعته الذاتية وطبيعة صلته بالربّ/ الأب. أمّا صلته بالأُمّ، فلا تمثّل إشكالا باعتبارها صلة جسديّة ظاهرة إذ حملت به ووضعته. ولكن تمثّل إشكالا باعتبار أصل الحمل ودور الأب في تحقيق هذه الولادة.

إنّ الفكر المسيحي يقطع عموماً مع الأبوة الجنسية على الصورة الإنسانيّة "فهم ينزّهون مريم عن الفاحشة وينزّهون الربّ عن الجماع"<sup>29</sup> بالصورة الجسديّة؛ فالمسيح عندهم هو "الكلمة حلّ في إنسان تامّ كامل خلق من زرع مريم بلا جماع"<sup>30</sup>، وقد أدّى هذا الاعتبار إلى تأويل معنى الولادة فقال بعض المسيحيين: "إنّ الله سمّاه ابناً على طريق التّبني لا على طريق الولادة"<sup>31</sup>، فهو إنّما دعي "ابناً لكان الابن الذي حلّه"<sup>32</sup>. وفي النصّ الإنجيلي نفسه ما يقرب هذا المعنى. إذ نقرأ في إنجيل يوحنا "وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللَّهِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ الَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ بَلْ مِنْ اللَّهِ"<sup>33</sup>. إنّ هذه الولادة، لئن صحّت في نسبة المؤمنين إلى الله، فإنّها على المعنى المجازي ولادة عقائديه لا جسديّة.

ولكن هل كان الموقف من خارج الدائرة المسيحيّة يتقبّل "الكلمة" بذلك المفهوم وبذلك الشحنة الدلاليّة التي سادت في الكنائس، وتطوّرت عبر المجامع المسكونيّة<sup>34</sup>؟ كيف تعامل المسلمون تخصيصاً مع هذا النصّ الإنجيلي المهمّ؟ وما هو التأويل الذي خصّوا به "الكلمة"؟

<sup>27</sup>- هذا التعدّد جعل القاضي عبد الجبار يقول: " مذهب النصارى لا يكاد يتحصّل". شرح الأصول الخمسة، القاهرة، 1965، ص 291.

<sup>28</sup>- Dictionnaire de religions, p. 766.

<sup>29</sup>- وهذا ما جعل عندهم فكرة الأبوة والبنوة في الغالب على غير المعنى البشري المألوف

<sup>30</sup>- الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى، ص 287.

<sup>31</sup>- القاضي عبد الجبار المغني، ج 5، ص ص 84-85.

<sup>32</sup>- الناشئ، الكتاب الأوسط في المقالات ص77، وانظر الشرفي الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى، ص 288.

<sup>33</sup>- إنجيل يوحنا الأصحاح الأوّل.

<sup>34</sup>- من أهمّ الأدوار التي اضطلعت بها المجامع عموماً والمجامع المسكونيّة الثلاثة الأولى خاصّة تثبيت قواعد العقيدة المسيحيّة ومن أبرزها الصورة التي يجب اعتبارها في يسوع المسيح، وقيّمته الوظيفيّة في مقولة الألوهيّة عند المسيحيين.

## 2- الكلمة في النصوص اللاحقة: القرآن وحوافه

ليس يعنينا من كلمات "الكلمة" أو ما قاربها في الاشتقاق إلا ما دلّ في السياق النصّي القرآنيّ على المسيح عيسى بن مريم، وهو السياق الذي تأسس في النصّ الإنجيليّ من قبل. ونجد له في القرآن موضعين صريحين، وثالثاً أقلّ تصريحاً. فأما الأولان، فهما:

- "إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ" (آل عمران 45).

- "إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ..." (النساء 171)

وأما الثالث، فالآية 39 من سورة آل عمران: "فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِيَخْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا"

إننا ننبين في الآيتين الأوليتين، سعي النصّ القرآني إلى إقامة علاقة بين عيسى و"الكلمة الإلهية"، تصل حدّ المماهة التي ينشئها تركيب النعت في النصّ الأوّل (كلمة اسمه المسيح عيسى)، وتركيب الإسناد في النصّ الثاني (إنما المسيح عيسى...كلمته). وتنشئها دلالة المطابقة في الثالث؛ فهو "الكلمة" سواء إلى الله أضيف أو به نُعت.

وتُجمع النصوص الإسلامية الحاقّة على أنّ المقصود بـ"الكلمة" في الاستعمال القرآني هو كلمة "كُنْ" المبدعة أو الخالقة.<sup>35</sup> وقد جاء في تفسير الألوسي<sup>36</sup> أنّ "المراد بالكلمة عيسى عليه السلام، وهو المرويّ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وعليه أجلة المفسرين. وإنّما سمّي عيسى عليه السلام بذلك لأنه وُجد بكلمة (كن) من دون توسّط سبب عادي"<sup>37</sup>. فالمراد "كلمة التكوين لا كلمة الوحي"<sup>38</sup> وكلمة التكوين هي فعل إنشاء وخلقٍ عناصرها الأشياء المتحيّزة بالزمان والمكان والمتشكّلة بالعلاقات الوظيفية. وأمّا كلمة الوحي، فقول بالرمز عناصره الوحدات اللغوية المتحيّزة بالنصّ والمتشكّلة بالعلاقات الدلالية. وللتأكيد على أنّ "الكلمة" لا تعني

<sup>35</sup>- انظر:

D. B. Macdonald, L. Gardet E. I2. Kalima T IV, p. 530.

<sup>36</sup>- الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، 1345 هـ، ج 3، ص 130.

<sup>37</sup>- تكرر هذا المعنى بصيغ مختلفة في كتب التفسير وأحياناً بالعبارات نفسها. انظر مثلاً: تفسير القرطبي، ط 2، دار الفكر، بيروت 1987، ج 4، ص 76. وتفسير الخازن، المطبعة المصرية، 1304 هـ، ج 1، ص 226...

<sup>38</sup>- العبارة لمحمد رشيد رضا في الجزء 3 من تفسير المنار. راجع ط: 2، مصر، 1350 هـ، ج 3، ص 304.

الذات التي كانها عيسى، وإنما فعل الخلق الذي كان به عيسى،<sup>39</sup> قرن المفسرون المسلمون "كلمة الله" المتعلقة بعيسى بـ"كلمة الله" المتعلقة بآدم، حتى صارنا كالملازمين في التفسير بناء على تماثلهما في النص القرآني: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب، ثم قال له: كُنْ فيكون" (آل عمران: 59)؛ وتتأكد كلمة الكيان بهذا السياق القرآني وبالتوظيف الدلالي نفسه في السورة ذاتها عندما يُقبل الملاك لئيشّر مريم بميلاد المسيح دون أن تكون لها علاقة جماع مع ذكر. تقول الآية 47 من سورة آل عمران: "قالت: رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غلامٌ ولم يُمسسني بشر؟ قال: كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قَضَىٰ أمرًا فإنه يقول له: كُنْ فيكون".

إن لفظ "كلمة" المتعلق بالمسيح في الآيات السابقة هو "العبارة" التي عن طريقها يتشكل ويتفشى القرار الإلهي حسب ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية. ففي ميلاد المسيح "العجائبي" ينتفي أحد العناصر الضرورية في عملية الإخصاب الطبيعية، ليكون الأمر الإلهي هو الفعل/ الفاعل المُخصب في هذه العملية؛ لذلك تُعوضُ الذُكُورَةُ في النص القرآني بالكلمة الخالقة "كُنْ" التي تدلّ على الإرادة والقدرة والخلق<sup>40</sup>. ويرى كثير من المفسرين بأن تأويل "الكلمة" على معنى (كن) هو الأدقّ والأبلغ، لأنّ قول (كن) تعبير عن تعلق القدرة بتكوينه (أي عيسى) حيّا ذا روح، ليعلم السامعون أنّ التكوين ليس بصنع يد ولا نحت بآلة، ولكنّه بإرادة وتعلّق قدرة وتسخير الكائنات التي لها أثر في تكوين المراد، حتى تلتئم وتندفع إلى إظهار المكوّن. وكلّ ذلك عن توجّه الإرادة بالتنجيز<sup>41</sup>.

فابن كثير يجزم أنّ تعريف القرآن لعيسى بأنّه روح الله وكلمته لا يوجب الإقرار بأنّ عيسى هو الله أو ابن الله "لأنّ الذي اتصل بها من الملك هي الرّوح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفاً وتكريماً، وسمي عيسى بها لأنّه كان بها من غير أب"<sup>42</sup>.

إنّ إصرار المفسرين على أن يوجّهوا تأويل "الكلمة" إلى معنى (كن)، وأن يهجنوا في المقابل سائر التّأويلات التي تعتبر "الكلمة" ذاتاً لا فعلاً، وشخصاً لا تشخيصاً، ليس إصرار دفاع عن وجهة لغويّة في استنباط الدلالة، ولا انتصاراً لمنهج في مقارنة النصوص المقدّسة ومقارنة ما تعالق منها وتشابهه، رغم كثافة

<sup>39</sup>- وفي هذا المعنى ينقل ابن كثير عن شاذان بن يحيى قوله: "ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى". انظره في تفسير ابن كثير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1990، مج 2، ص 215.

<sup>40</sup>- يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "كلمة التكوين هي تعلق القدرة بالتنجيزي، كما في حديث خلق الإنسان: ويومر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله... الخ" التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، ج 3، ص 245.

<sup>41</sup>- التحرير والتنوير، ج 3، ص 264.

<sup>42</sup>- ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص ص 65 - 66.



التعليقات اللغويّة؛ وإنّما هو انحياز عقديّ يجعل مفهوم الكلمة مصروفاً - بكلّ وجه - عن معنى التماهي بين ذات الله وذات الكلمة. يقول الفخر الرازي: "لما لم تكن واسطة الأب موجودة، صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوّنه (المسيح) وتخليقه أكمل وأظهر، فكان كونه كلمة الله مبدأ لظهوره ولحدوثه أكمل، فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يتوهّمه النصارى والحلوليّة".<sup>43</sup>

ولقد سبّب هذا الجدل الذي يقرّره الإيمان ويبرّره تأويل القرآن شيئاً من التداخل والالتباس في النصوص التراثية الإسلامية الحافّة عموماً، وفي مصنّفات التفسير خاصّة. ويمكننا التمثيل لذلك بما جاء عن الطبري؛ فقد اختلف تفسيره لعبارة "بكلمة منه" في الآية 39 من سورة آل عمران عن تفسيره للعبارة نفسها في الآية 45 من السورة ذاتها. في الأولى فسّر "الكلمة" بكونها تعني عيسى بن مريم وتُحيل عليه، وقد كان رأيه في ذلك رأياً قاطعاً لا تردّد فيه ولا تشعّب، لذلك لم نلّفه يُكثِرُ من المرويّات المؤتلفة والمختلفة، بل اكتفى باستعراض المواقف المتفقّة حول دلالة عبارة "بكلمة من الله"، وهي عيسى بن مريم. أمّا في الموضع اللاحق (الآية 45) فإنّ معنى "كلمة منه" لم يُعَدَّ واضحاً بيّناً، بل صارت العبارة متعدّدة الدلالة مختلفة الإحالة، ولذلك استعرض الطبري جملة من المقاصد توسّع تأويل العبارة القرآنيّة على عدّة وجوه<sup>44</sup>:

معنى أول: تدلّ فيه العبارة على الكلمة الخالقة أو الأمر الإلهي الخلاق، أو على الخلق بالكلمة؛ فعبارة "كلمة منه" تعني "كن" المبدعة أو الخالقة، وهذا الفهم منسوب إلى قتادة، يقول الطبري: "... أخبرنا معمر عن قتادة قوله 'بكلمة منه' قال: قوله: 'كُنْ'، فسماه الله عزّ وجلّ كلمته، لأنّه كان عن كلمته، كما يُقال لِمَا قَدَرَ اللهُ من شيء: هذا قَدَرُ اللهُ وقضاؤه، يعني به: هذا عن قَدَرِ اللهُ وقضائه حَدَثٌ..."<sup>45</sup>، فيكون ميلاد عيسى بذلك ناشئاً عن الأمر الإلهي "كُنْ"؛ أي عن طريق الخلق بـ"الكلمة" بما أنّه لم يكن عن طريق جِماعٍ بين ذكر وأنثى.

معنى ثانٍ: تدلّ فيه عبارة "كلمة منه" على عيسى بن مريم، فـ"الكلمة" تُعَدّلُ هنا عيسى، وهذا المعنى منسوب إلى ابن عبّاس، وهو يلتقي مع دلالة العبارة التي ذهب إليها المُفسّر في الآية 39 من سورة آل عمران، يقول الطبري: "وقال آخرون: بل هي اسم لعيسى سمّاه بها كما سمّى سائر خلقه بما شاء من الأسماء. رُوِيَ عن ابن عبّاس - رضي الله عنه - أنّه قال: 'الكلمة: هي عيسى'".<sup>46</sup>

<sup>43</sup> - فخر الدين الرازي، التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت 1990، ج 8، ص 54.

<sup>44</sup> - لخصّ محمد رشيد رضا في تفسير المنار أهمّ ما ورد من أقوال المفسرين في "كلمة الله". وهي على أربعة وجوه: - أنّها كلمة التكوين / أنّها دالة على المسيح الذي بشر به الأنبياء / أنّها أطلقت على عيسى لإيضاحه لكلام الله / - أنّها كلمة البشارة لأُمّه ". ج 3، ص 304.

<sup>45</sup> - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت 2001، المجلّد 3، جزء 3، ص 330.

<sup>46</sup> - المصدر السابق، مجلّد 3، جزء 3، ص 330.

غير أنّ الطبري انتصر للرأي الأوّل بعد أن استعرض الموقفين معللاً ذلك بحجّة لغويّة نحوية يقول فيها: "وأقرب الوجوه إلى الصّواب عندي القول الأوّل، وهو أن الملائكة بشرت مريم بعيسى عن الله - عزّ وجلّ - برسالته وكلمته التي أمرها أن تُلقِيهَا إليها أنّ الله خالقٌ منها وُلدًا من غير بَعْلٍ ولا فَحْلٍ، ولذلك قال عزّ وجلّ: "اسمُهُ المسيحُ"، فَذَكَرَ ولم يَقُلْ: اسمُهَا فَيُؤَنَّثُ، والكلمة مُؤنَّثَةٌ؛ لأنّ "الكلمة" غيرُ مقصودٍ بها فَصَدَّ الاسم الذي هو بمعنى فلان، وإنّما هي بمعنى البشارة [...] فتأويل ذلك كما قلنا أنّا من أنّ معنى ذلك: إنّ الله يبشرك ببشرى، ثم بيّن عن البشري أنّها وُلدَ اسمه المسيح".<sup>47</sup>

ولكنّ التعليل الذي قدّمه الطبري في هذا الموضوع يبدو قابلاً للمراجعة، إذ أنّ عبارة "كلمة منه" في الآية 45 من سورة آل عمران، وعبارة "كلمة منه" في الآية 39 من السورة نفسها هي عينيها لم تتغيّر. فكيف تُفسّر في موضع بمعنى عيسى بن مريم وفي موضع آخر بمعنى البشارة بعيسى ابن مريم؟ ثم إنّ الحجّة اللغويّة التي قدّمها الطبري قد لا تنهض إذا أخذنا معنى "الكلمة" بكونه مُحيلاً على عيسى؛ أي على اسم علم مُذكر، وليس على المعنى اللساني المألوف (parole / mot). فإذا كان الأمر كذلك، صحّ تذكير اللفظ اللاحق؛ أي "اسمُهُ المسيح عيسى..."<sup>48</sup>، إذ التعليل النحوي للتذكير في عبارة "اسم المسيح"، إنّما يفهم من معنى "كلمة" الدالة على عيسى؛ أي على اسم مُذكر.

ويُحيل الطبري في تفسيره لعبارة "وكلمته" الواردة في الآية 171 من سورة النساء "وكلمته ألقاها إلى مريم" على تفسيره السابق للعبارة نفسها الواردة في سورة آل عمران، ويؤكد أن دلالة "كلمته" الواردة في هذه الآية تدلّ على ذكر الله جلّ ثناؤه في قوله: "إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يُبشرك بكلمة منه" (آل عمران 45) يعني: برسالة منه، وبشارة من عنده، وقد قال في ذلك [...] هو قوله: كُنْ فكان".<sup>49</sup>

إنّنا ننتبين في تفسير الطبري أنّ صاحبه يُفسّر عبارة "كلمة الله" أو "كلمة منه" تارة بكونها تُحيل على عيسى بن مريم أو المسيح، فيلتقي هنا في فهمه للعبارة بالتصوّر المسيحي الذي يفهم من مفتاح إنجيل يوحنا، أو هو يقاربه في التوجّه على الأقلّ، وطوراً يُفسّر العبارة بكونها مُحيلاً على معنى ثانٍ هو الكلمة الفاعلة الخالقة والصادرة عن الله بما هي الأمر الإلهي الذي ما إن يصدر حتى يتحقّق في الوجود. وقد عبّ عبء المجيد الشرفي على هذا التردّد في تفسير الطبري بقوله: "إنّ تأويل نفس العبارة بوجوه عديدة يترجم في الواقع عن

<sup>47</sup>- المصدر السابق، ص 331.

<sup>48</sup>- وقد استعرض الطبري رأي بعض النحويين الذين يذهبون هذا المذهب وإن لم يقبله، يقول: "وقد زعم بعض نحويي البصرة أنّه إنّما ذكّر فقال: "اسمُهُ المسيح"، وقد قال: "بكلمة" منه، والكلمة عنده: هي عيسى، لأنّه في المعنى كذلك..." تفسير الطبري، مج 3، ج 3.

<sup>49</sup>- المصدر السابق، مجلد 4، جزء 6، ص 44.

عدم يقين في شأن معناها، لا سيّما إن قبلت تلك الوجوه على اختلافها وتباينها، وهو ما تميّز به تفسير الطبري<sup>50</sup>.

غير أنّ هذا البحث في مختلف الأوجه وتقليب "الكلمة" على مختلف التأويلات، يتمّ عن سعي إلى ابتناء تصوّر متماسك يستجيب لدوافع ثلاثة على الأقلّ، ويحاول التوفيق بينها:

– تفاعل محايت للنصّ القرآنيّ يقرأ جزئيات صياغته، ويلائم بين تفاصيل تعابيره في مختلف المواضع من الآيات التي تضمّنت "الكلمة/ عيسى" أو "عيسى/ الكلمة"

– إقرار توافق بين مقتضى النصّ ومقتضى العقيدة الإيمانيّة التي مدارها التوحيد والتنزيه.

– الردّ على مقولة الألوهيّة والبنوّة (كيان الكلمة) بمقالة البشريّة والنبوّة (كلمة الكيان)

غير أنّ هذا الاختلاف في التأويل الذي قد يوجد عند المفسّر الواحد كما قد يحدث فيما بين المفسّرين، قلّما نجد له أثرا في ترجمات القرآن؛ فقد نقل بلاشير – مثلا – (R. Blachère) لفظ "الكلمة" المحيل على شخص يسوع المسيح إلى اللسان الفرنسي بمقابل واحد، وهو مصطلح (verbe)<sup>51</sup> في المواطن الثلاثة التي أتينا على ذكرها، وهي الآيتان 39 و45 من سورة آل عمران، والآية 171 من سورة النساء. والملاحظ أنّ بلاشير نقل لفظ "الكلمة" في غير المواضع

الثلاثة السابقة بغير هذا الملفوظ، وغالبًا ما أحالت عبارة "كلمة الله" على أمر الله أو قضائه أو قراره في ترجمته للنصّ القرآني،<sup>52</sup> ولم تدلّ على عيسى بن مريم. ولكنّ اختيار (verbe) في السياقات المعينة أنسب لكلمة الكيان (كن) التي ارتأتها الثقافة الإسلاميّة من (parole) التي جاءت في النسخة الفرنسيّة لإنجيل يوحنا.<sup>53</sup>

<sup>50</sup> - الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى، ص 315.

<sup>51</sup> - انظر ترجمة بلاشير للآيات الثلاث المعنية ضمن:

R. Blachère, traduction du Coran, E. Maisonneuve et Larose 1980.

<sup>52</sup> - انظر:

D. B. Macdonald – L. Gardet, Kalima, E.I<sub>2</sub> T1V, p. 530.

<sup>53</sup> - « Au commencement était la Parole, et la Parole était avec Dieu, et la Parole était Dieu »

Évangile de Jean. 1.1.



ويجيب بالنفي<sup>55</sup> مضيفاً: "لقد أفرغ القرآن الصفات الأكثر نبلا التي يتجلى بها يسوع في التقليد المسيحي، حتى لا يبقى غير رسول مبعوث مخلوق".<sup>56</sup>

وبهذا يمكننا أن نوّكد، أنّ القرآن بثّ في مفهوم "الكلمة" دلالات لم يكن يحملها في الأصل الإنجيلي، وأنّ تلك المعاني التأويلية التي اجتهد المفسّرون والمتكلّمون في استنباطها تُفصح في الحقيقة عن أمرين جوهريين في القرآن: أولهما نفي البنوّة في المسيح؛ وثانيهما إبطال مقولة تأليهه لإثبات آدميته وبشريته وكونه عبداً ورسولاً، فيكون القرآن بتوظيفه المخصوص لـ"الكلمة"، قد قوّض بعض الأركان الجوهرية في العقيدة المسيحية؛ ليؤسّس صورة المسيح الإسلامية التي ينتفي فيها تأليه البشر بأيّ حال، وتكون فيها العلاقة بين المرسل والمرسل علاقة عمودية، ويظلّ فيها الخالق كائناً مفارقاً متعالياً يتواصل مع البشر عن طريق الوحي الذي يُبلّغه الأنبياء، وليس أبناء الآلهة.

<sup>55</sup> - voir: Jésus selon le Coran, p. 33.

<sup>56</sup> - نفس المرجع، ص 53



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية  
ص.ب : 10569  
هاتف: 00212537779954  
فاكس: 00212537778827  
info@mominoun.com  
www.mominoun.com